يوم المرأة العالمي... ب

ما مذكر «ثورة»؟

بيار أبي صعب

عشيّة «يوم المرأة العالمي»، طالب سياسي تونسي بـ«حق كل مواطن في اتخاذ جارية إلى جانب زوجته». البحري الجلاصي، رئيس «حزب الانفتاح والوفاء»، دعا المجلس الوطني التأسيسي، إلى تضمين الدستور الجديد فقرة تؤكّد على هذا الحق. الفكرة طريفة بحدّ ذاتها: دستور يضعه الرجال، ليجعلوا النساء لهم مشاعاً. هل نسينا أن السلطة مفهوم بطريركي بامتياز؟ بالطبع يمكن تأنيثه، لكن الأمر يتطلّب تعديلاً تاريخيّاً جذريّاً، على قاعدة التداول والمشاركة والعدالة ورقابة الشعب. في حين أن الجعجعة الكونيّة التي تصادر «الربيع العربي»، تسعى إلى إلهاء الرأي العام بهذا الفولكلور الثوري، ريثما تترسّخ البنى القمعيّة الجديدة. تأنيث السلطة «ثورة» لم تأتِ ساعتها بعد.

الحريّات تراجعت في تونس، وقوانينها الرائدة عربيّاً، في مجال الأحوال الشخصيّة وحقوق المرأة، تواجه مصيراً مجهولاً. لكن النساء في شوارع تونس، والمعركة لم تحسم بعد. بعضهنّ سيرفع اليوم كتاب الطاهر الحدّاد «امرأتنا في الشريعة والمجتمع» (1930) في طبعته الجديدة، مذكّراً بأنّ بلده كان وسيبقى معقل التنوير. في القاهرة ما زالت الصورة القاتمة تلاحقنا: مجموعة عسكر ينهالون على متظاهرة شابة بهراواتهم (والهراوة رمز قضيبي بامتياز). يعبثون بملابسها فتظهر الصدريّة التي باتت أيقونة، رمزاً للكرامة الشعبيّة المُداسة. لكن النساء اليوم في شوارع مصر، والمعركة لم تحسم. وسميرة إبراهيم، الشابة الوحيدة التي تجرأت على رفع قضيّة ضدّ النيابة العسكريّة، بتهمة الاعتداء الجنسي («فحص العذريّة»!)، ربحت جولتها القضائيّة ضدّ العسكر. في واشنطن، تسلّم هيلاري كلينتون اليوم إحدى جوائز «أشجع نساء العالم» للناشطة الحقوقية السعودية سمر بدوي. وزيرة خارجيّة أبشع قوة استعماريّة، والبلد الذي يمتلك أعلى نسبة معنّفات في العالم، باتت نصيرة المرأة السعوديّة. احذروا التزوير! وحدها الانتفاضة على الذكورة (والاستعمار ذكورة)، تفتح أمامنا طريق الحريّة. الشجاعة الحقيقيّة في تأنيث الثورة.

إنهن رائدات الوعي النسوي العربي

ريتا فرج

«المرأة كائن بغيره لا بذاته». بهذه العبارة توجز الكاتبة السورية خالدة سعيد أحوال النساء العربيات رغم الحضور النسائي البارز بدءاً بتبلور الوعي الوطني. وفي اليوم العالمي للمرأة، تحضر الأسئلة حول أحوال النساء وأدوارهن في عالم لم يتصالح بعد مع الجنس الآخر على حد تعبير سيمون دو بوفوار.

لم تكن حركات تحرّر المرأة في العالم العربي حديثة العهد. تبلور الوعي النسوي في أواخر القرن التاسع عشر. ورغم أن الأدبيات أضاءت على الدور الذي لعبه قاسم أمين (1863 ـ 1908)، إلا أنّ ثمة نساء عربيات دافعن عن قضية المرأة قبل صاحب «المرأة الجديدة»، ومن بينهن زينب فواز التي سبقت أمين بالدعوة الى إطلاق حرية المرأة في جميع المجالات والنشاط الانساني، وعبّرت عن مشروعها في مجموعة رسائل سميت «الرسائل الزينبية».

ومع ثورة 1919 في مصر، شاركت النساء المصريات في مراحل الثورة التي كانت الانطلاقة الأولى لحركة نسائية انخرطت بين الجماهير غير مكترثة بالقيود الاجتماعية والثقافية والدينية. وهذا يعني أن تمثلات الوعي النسوي وإدراكاته اتخذت في البداية طابعاً وطنياً، من دون أن ينفي ذلك المحاولات النسوية الرائدة والمؤسسة على المستوى الأدبي والصحافي. الى جانب أول قاموس لأعلام النساء الذي وضعته زينب فواز، هناك معلم نسوي آخر «شهيرات في العالم الإسلامي» للأميرة المصرية قدرية حسين بنت السلطان حسين كامل الذي نشر عام 1924.

ومن بين النسويات اللواتي لعبن دوراً تأسيسياً المصرية نبوية موسى (1886 ـ1951) التي شاركن في تاريخ النهضة النسائية المصرية وأسست مجلة «الفتاة» (1937 ـ 1943) وعبّرت عن أفكارها في كتابين: «تاريخي بقلمي» و«المرأة والعمل». والكتاب الأول هو ضمن السير الذاتية المعدودة لرائدات مصريات في العصر الحديث، وقد عكس وعياً نسوياً من خلال دعوتها الى تعليم النساء، هي التي كابدت قبل أن تلتحق في المدرسة. كانت نبوية أول ناظرة مصرية تقابل الرجال في مكتبها، ونشأت في مجتمع لا يشجع على تعليم النساء والعمل العام، وقاومت هذه الأوضاع بشدة خصوصاً أنها تنتمي الى عائلة محافظة.

احتلت مصر مبكراً موقع الصدارة للوعي النسوي العربي. لكن هذا لا ينفي دور النساء العربيات في لبنان، وسوريا، وفلسطين، واليمن، والعراق. في الفترة الممتدة بين 1892 و1940، أصدرت النسويات العربيات مجلات خاصة بهن (خصوصاً في مصر ولبنان وسوريا) نشرن فيها القصائد والقصص والنقد الأدبي، إضافة الى المقالات التي تعنى بمشاركة المرأة في الحياة الاجتماعية والسياسية. تجلى ذلك في العدد الوفير من المجلات النسائية التي صدرت في هذه المرحلة وفاق عددها الـ25. نذكر مثلاً مجلتي «السيدات» و«الفتاة» اللتين أصدرتهما السورية هند نوفل عام 1892 وتخصصتا في الدفاع عن حقوق النساء والتعبير عن وجهة نظرهن؛ كما صدرت مجلة «المرأة والإسلام» عام 1900، فضلاً عن المنشورات والمساهمات النسائية الخاصة كنشر عائشة تيمور أشعارها التي تشيد بالمرأة العربية عام 1869 وإصدارها كتاب «مرآة التأمل» عام 1874. كذلك أسهمت ملك حفني ناصف المعروفة بباحثة البادية في المؤتمر المصري للتعليم عام 1911 من دون أن ننسى مي زيادة التي افتتحت صالوناً أدبياً لتستقبل الأدباء والشعراء والمفكرين كل يوم ثلاثاء. أما وتيرة الكتابة في البلدان العربية الأخرى، فقد تفاوتت. في لبنان، توزعت الكتابات النسائية بين الداخل والخارج تبعاً لهجرة الجاليات اللبنانية. أما في سوريا، فقد تنوعت الاصدارات النسائية المطالبة بتعليم البنات، وظهرت في العراق أول مجلة نسائية «ليلى» عام 1923 لتصدر بعدها مجلة «المرأة الحديثة» و«الفتاة العراقية» و«فتاة العرب». وفي السودان، ظهرت مجلة «بنت الوادي» عام 1946 و«صوت المرأة» عام 1955.

شكلت الصحف والسير الذاتية بدايات التعبير النسوي العربي قبل أن تتجه النساء الى مقارعة البنى البطركية والمنظومة الدينية والثقافة الذكورية السائدة القائمة على مركزية الذكر وتهميش الأنثى. والى جانب النسوية الاسلامية التي بدأت تتبلور مع نظيرة زين صاحبة «السفور والحجاب» عام 1926، عكست النصوص الأدبية القلق النسوي وهواجسه مقارعةً أربع مسائل: الدين والذكورة والأبوية والتنميط الجنسي. في «السرد النسوي، الثقافة الأبوية، الهوية الأنثوية، والجسد» (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2011) يرصد الكاتب العراقي عبد الله ابراهيم أصوات النساء العربيات والمسلمات وقلقهن المستديم عبر الروايات والسير الذاتية.

أما السرد النسوي الأدبي العربي فعالج أربع قضايا متداخلة: صورة المرأة في مرآة الذكور، الدعوة الصارخة للمساواة، الاحتفاء بالجسد، الثورة على المنظومة البطركية والدينية. هذا الكمّ من الروايات النسوية التي بدأ بالتراكم منذ ثلاثة عقود يبرهن على أزمة الشراكة بين الذكر والأنثى. هذه الأزمة تطال السياسي والاجتماعي والاقتصادي، كمجالات ثلاثة ما زالت حكراً للرجال. لكن الأخطر أنّ حضور المرأة العربية ما زال في مطلع القرن الحادي والعشرين رهين الاكراهات الخارجية. هي لا تستطيع أن تفعل ما تشاء بجسدها إلّا سراً، بينما حدّت البطركية والدين من قدرتها على تحقيق وجودها في المجال السياسي رغم بعض الاختراقات، فبدت فعلاً «امرأتان في امرأة»!

> احتلت مصر موقع الصدارة إلى جانب الدور الذي لعبته نسويات لبنان، وسوريا، وفلسطين

زمن التمرد على عصر الحريم

الرباط ـ محمد الخضيري

بين نوال السعداوي المصرية وفاطمة المرنيسي المغربية، قواسم مشتركة كثيرة، أوّلها معركة استمرت عقوداً من أجل تحرير المرأة، ونضال نسوي برز في العلوم الاجتماعية من أجل وضعها خارج «عصر الحريم». ساءلت كل واحدة الراكد في الثقافة الإسلامية وسط مجتمع ذكوري مستفحل. جرأتهما على المقدس كانت نتيجتها مختلفة. وإذا كانت المرنيسي قد سلمت من حرب الدولة والمجتمع، فإنّ نوال السعداوي حاربت وحدها ضد الجميع.

تعرضت السعداوي (1930) لحرب على الجبهات كافة. خطابها النسوي القوي الذي لا يهادن، دفع إلى تكفيرها من قبل الإسلاميين، وأشعل حرب النظام العسكري الذكوري على أفكارها. تعرضت الباحثة للاعتقال في ظل نظام السادات عام 1981، بعد احتجاجها على قانون يرسّخ نظام الحزب الواحد في البلد، وأفرج عنها عام 1982. قبل ذلك بحوالى تسع سنوات، فقدت عملها كطبيبة في وزارة الصحة المصرية بسبب آرائها وكتاباتها، مثل كتابها الممنوع «المرأة والجنس» (1969). عمل كان فاتحة إصدارات نقدية تشرح المجتمع الإسلامي كـ «المرأة والصراع النفسي» (1975) و«سقوط الإمام» (1987) و «البنى البطركية والذكورية». انتقدت السعداوي عبر أعمالها المختلفة، سلوكيات دينية وصفتها ببقايا الوثنية، كبعض طقوس الحج، معتبرةً تحجيب المرأة عادة جاهلية. وناضلت من أجل تحرر المرأة والفرد عموماً. لم يتوقف مسلسل التضييق على فكرها وآرائها. هكذا ستشهد أكثر الملاحقات القضائية غرائبيةً، حين سيطالب إسلاميون بتطليقها من زوجها السابق شريف حتاتة، وستوجه إليها تهم «ازدراء الأديان». ولن يتوقف مسار التشويه والتهديدات لتوضع في قائمة المطلوبة رؤوسهم من طرف جماعات إسلامية، كما ستمنع أعمال عدة لها. لكن الطبيبة والباحثة لم تهادن. بقدر انتقادها السياسي للنظام القائم، انتقدت البنية الثقافية التي تمثّل العالم العربي والإسلامي في جميع أعمالها: سيطرة الفكر الديني. ختان المرأة، الجنس، الحجاب، كلها مواضيع قدمت فيها طروحات أغضبت كثيرين. ولا تخلو خطب الإسلاميين المتشددين وكتبهم طيلة عقود، من انتقادات شرسة للمؤلفة. دافعت السعداوي عن حقوق الإنسان وساندت قيام الدولة المدنية. ولهذا في متابعتها للحراك الثوري المصري الأخير، حافظت على مسافة نقدية منه، وانتقدت الانتخابات النيابية الأخيرة التي وُظّف فيها الدين لأغراض ومآرب سياسية.

على الضفة الأخرى، اشتغلت الطبيبة النفسية المغربية فاطمة المرنيسي (1940) على المواضيع نفسها، ولو على نحو مختلف. انطلقت من السوسيولوجيا الميدانية لترصد تطورات المجتمع المغربي، وموقع المرأة داخله. أنجزت كتباً مرجعية، أسهمت في تطوير فكر نسوي، مغربي وعربي، واع بآليات السيطرة الذكورية. التحقت الباحثة بالجامعة في الرباط بداية السبعينيات للدراسة، ثم كأستاذة جامعية في الثمانينيات.

فكر المرأة جاء في مرحلة كان خلالها اليسار المغربي متسلحاً بمعاول السوسيولوجيا من أجل هدم يقينيات «الفكر القروسطي» للسلطة. وما كان من السلطات سوى إغلاق معهد الدراسات السوسيولوجية في الرباط. الباحثة وجدت في الفضاء الجامعي الفرنسي والأنغلوساكسوني نقطة دعم قوية. كتاباتها باللغتين جعلت فكرها في مأمن من «المنع». المؤلفة تمتح فكرها أيضاً من التراث الفكري الإسلامي، لكن من أجل إعادة موضعة المرأة داخله ومنحها ما تستحق. صدرت لها أعمال من قبيل «الجنس والإيديولوجيا والإسلام» (1985)، و«الحريم السياسي» (1987)، و«أحلام نساء» (1996)، الذي تستحضر فيه طفولتها داخل مجتمع «الحريم».

> فككت فاطمة المرنيسي ونوال السعداوي آليات السيطرة الذكورية